

# مختصر تاريخي لدير القديس سابا

المرحلة الأولى: منذ تأسيس الدير وحتى بداية الحكم العربي (٤٨٣-٦٣٨م)

دير القديس سابا المتقدس في صحراء يهوذا يُعتبر من أهم المقدسات في الأرض المقدسة وفي التاريخ الكنسي بسبب دوره في وضع أسس العبادة المستقيمة الرأي وتنظيم الحياة الرهبانية والطقوس الكنيسة، وأيضاً لوجود عدد من القديسين واللاهوتيين والشهداء الذين تنسكوا في الدير وإعتادوا على الحياة الرهبانية القاسية. أيضاً لعب هذا الدير دوراً حاسماً في النضال من أجل المحافظة على المقدسات والحقوق الأورثوذكسية للبطريركية الأورشليمية التي تعرضت للانتهاكات في مراحل تاريخية مختلفة.

يعود تأسيس الدير الى سنة ٤٨٣ على يد القديس الروحاني سابا الذي كان كمصباح مضيء لجميع المتعطشين لحياة الوحدة مع الله، والحياة الرهبانية في الدير لم تنقطع طوال الـ١٥٠٠ سنة من تأسيسه حتى يومنا هذا. النواة الأولى للدير (اللافرا) تكونت على يد الرهبان الأوليين الذين كانوا مع القديس سابا سنة ٤٨٣. بعدها نُقلت اللافرا من الجهة الشرقية حيث موجودة صومعة القديس سابا الى الجهة الغربية حيث بُنيت هناك "الكنيسة التي بناها الله" كما أطلق عليها الرهبان سنة ٤٨٦-٤٩١.

تزايد عدد الأخوية في الدير أجبر الرهبان على بناء كنيسة أكبر وهكذا بُنيت كنيسة العذراء سنة ٥٠١ م، وجعل الرهبان يبادرون بتنظيم الحياة الرهبانية في الدير والخدمات الضرورية حتى تتناسب مع عدد الرهبان المتزايد وتلبية إحتياجاتهم.

سمعة القديس سابا الروحانية وقداسته جعلت منه قائداً ومؤسساً للحياة الرهبانية في أورشليم وواضع قوانينها (٤٩٣ م) ليس فقط في الأديرة الرئيسية التي بناها حتى رقاده سنة ٥٣٢ وإنما في جميع أديرة فلسطين، وكانت اللافرا الرئيسية (أي الدير الرئيسي) مصدر ألهامٍ للطقوس والحياة الكنسية.

دير القديس سابا لعب دوراً حاسماً في مواجهة هرطقة الطبيعة

الواحدة (المونوفيسيتية) ٥١٢-٥١٦ ووقف في وجه الامبراطور أناستاسيوس وباقي البطيريكيات في الشرق التي كانت في يد المونوفيسيتية. هذا النضال اللاهوتي لرهبان الصحراء حمى البطيركية ألوشرلمية من هذه البدعة. كذلك وقف رؤساء الدير الذين خلفوا القديس سابا مثل القديس يوحنا أسقف كولونيا السابق الملقب بالهادئ وهو تلميذ القديس غريغوريوس، في وجه بعض تعاليم العلامة أوريجانوس خاصة فيما يتعلق بتفسيره لمكانة الروح القدس وعمله، وتعرض الرهبان للاعتداءات حتى عند تعيين واحد من أتباع أوريجانوس (جيورجوس سنة ٥٤٧ م) رئيساً للدير بالقوة، لكن إرادة الله حمت الدير عن طريق الراهب كونوس أحد أتباع القديس سابا الذي قاوم هذه التعاليم في المجمع المسكوني الخامس سنة ٥٥٣ م .

ظهور الفرس في الأراضى المقدسة سنة ٦١٤م مهّد الطريق لمجيء العرب المسلمين سنة ٦٣٨م، وفي تاريخ ١٦ ايار سنة ٦١٤م تعرض رهبان الدير لمذبحة على يد الفرس الذين قتلوا ٤٤ راهباً من رهبان الدير.

### المرحلة الثانية: الحكم العربي، الفترة الصليبية، حكم المماليك (٦٣٨-١٥١٧م)

بعد أاحتلال العربي وإعادة تنظيم الافرا (كلمة لافرا تعني دير) الرئيسية على يد البطيريك القديس موزيستوس بدأت مرحلة الصعود والأزدهار في الدير خصوصاً في القرن الثامن ميلادي وبدايات القرت التاسع. في هذه الفترة ظهرت في الدير نخبة من القديسين الذين زيّنوا كنيسة أورشليم وكل الكنائس بمعرفتهم ونضالهم، أهمهم القديس يوحنا الدمشقي أحد أعمدة وفلاسفة الكنيسة الذي كان لاهوتياً عظيماً وناظم أالناشيد الكنسية، القديس قزماش مؤلف أالناشيد، القديس استيفانوس المرنم، القديس استيفانوس العجائبي، ونخبة كبيرة من الرهبان والآباء الذين أصبحوا فيما بعد اساقفة وبطاركة، وقدم الدير عدداً كبيراً من الشهداء الذين ناضلوا وحموا الدير بدمائهم من الأضطهادات. مع كل أعمال العنف التي تعرض لها الدير والكنيسة بشكل عام من قبيل البرابرة (٨١٣، ٨٠٩، ٧٩٦م) وبالرغم من الفوضى التي سادت في تلك الفترة وصل عطاء الدير للكنيسة الى قمته.

نضال القديس يوحنا الدمشقي ضد رافضي أاليقونات (المرحلة أالولى ٧٢٦-٧٨٧م)، والقديسين ميخائيل، ثيودوروس وثيوفانس (المرحلة الثانية ٨١٤-٨٤٣م)، يوضح مكانة وأهمية الدير في اللاهوت المسيحي.

بالإضافة الى دور الدير في الكتابات والمؤلفات اللاهوتية, أعطى الدير ثروة كبيرة من الترجمات والنسخ حيث كان الدير مركزاً لترجمة المؤلفات الكنيسة من اليونانية للعربية. ويذكر أن مؤلفات القديس إسحق السرياني المعروفة تُرجمت لأول مرة من اللغة السريانية الى اليونانية في دير القديس سابا على يد الراهب ابراموس والراهب باتريكيوس في القرن الثامن.

من القرن التاسع ميلادي وحتى القرن الثالث عشر أخذ النظام الليتورجي الكنسي (التيبكون) ومؤلفات الأناشيد الطقسية لرهبان دير القديس سابا بالانتشار بشكل واسع في باقي الأديرة حتى وصل في القرن التاسع الى أديرة جورجيا البعيدة على يد القديس غريغوريوس خاندستا سنة (٨٢٦م) , وتأثر بهذا النظام عدد كبير من القديسين الذين قاموا بتأسيس الأديرة فيما بعد.

بالمقابل أخذت المؤلفات الكنيسة خاصة الشعر الكنسي الذي طوره بشكل كبير القديس يوحنا الدمشقي والمدرسة الشعرية السابية (نسبة لدير القديس سابا) بالانتشار وأدى هذا النوع من الشعر الكنسي لوضع نظام جديد لطقوس العبادة الكنسية خاصة بعد فترة صراع الأيقونات. التأليف الشعري للأناشيد الكنسية للقديس يوحنا الدمشقي ووضع الألحان الثمانية للترتيل البيزنطي الكنسي أصبح سائداً في العبادة, وكتابة الألحان الثمانية أصبحت الأساس لأول كتاب الصلوات الكنسية.

سنة ٨٠٨م وُجد دير القديس سابا مرة أخرى في حالة دفاع عن أيمان المستقيم. تحت قيادة وإرشاد الرئيس الروحي للدير يوحنا تصدى الرهبان وشعب الكنيسة لهزيمة "الأنبثاق" التي ظهرت من قبل الرهبان البينيدكت في أورشليم, فقد أضافت الكنيسة الغربية على دستور أيمان كلمة ألبن في عبارة "الروح القدس..... المنبثق من الآب (والابن).." مما دفع لردود فعل كبيرة خاصة في بيت لحم وأورشليم وإضطر الرهبان البينيدكت بالاستنجاد بالبابا ليون الثالث وبإمبراطور الفرنج شارلمان الذي دعا لمجمع في مدينة آخن والذي فيه لاسف ثبتت هذه البدعة ووثقها في دستور أيمان, بينما البابا ليون عارض هذا القرار بقوة, وهكذا بدأت فترة من الصراعات اللاهوتية بين الأورثوذكس واللاتين في أورشليم.

في فترة الصليبيين كان رئيس الدير من اللاتين وكانت له مكانة عالية خصوصاً في غياب البطريرك الأورشليمي, ولافرا الدير أصبحت غنية من قبل الملكة ميليسانتي (١١٣١-١١٦٢م), بينما كنيسة

العذراء والرسومات التي بها رُممت في عهد الامبراطور الروماني مانوئيل (١١٤٣-١١٨٠م) سنة ١١٦٩م.

انتصار المماليك بقيادة صلاح الدين على الصليبيين سنة ١١٨٧م جلب معاناة جديدة لرهبان فلسطين ولكن بالرغم من كل الاضطهاد والقتل بقيت الحياة الرهبانية تُمارس في دير القديس سابا الذي بقي الدير الوحيد من بين كل الاديرة صامداً في الصحراء. في هذه الفترة تقلصت مساحة الدير وبُنيت الاسوار حول الدير واتخذ الرهبان نظاماً رهبانياً خاصاً يتصف بالتنسك والتقشف الشديد، وبالرغم من مرور الدير بفترة صعبة جداً يحاول فيها البقاء والصمود كان يُعتبر مدرسة كبيرة لأخوية القبر المقدس ومدرسة للحياة الرهبانية والكنسية.

في منتصف القرن الرابع عشر للميلاد أجرى الامبراطور البيزنطي يوحنا كاتاكوزينوس (١٣٤٧-١٣٥٤م) ترميمات كبيرة في الكنيسة الرئيسية للدير وفي مكان قبر القديس سابا المتقدس. وفي تلك الفترة كان الحدث الاهم والحاسم بالنسبة لمستقبل العبادة الأورثوذكسية وهو انتشار بما يسمى " التيبكون الليتورجي السابي الجديد " (مؤلف من التيبكون السابي القديم ومن تيبكون دير ستودايوس البيزنطي العريق، كلمة تيبكون تعني نظام الطقوس الكنسية). عُمِل بهذا التيبكون الجديد في القسطنطينية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وانتشر لباقي الاديرة في صربيا على يد القديس سابا الصربي (١١٧٥-١٢٣٦)، ورئيس أساقفة صربيا نيقوديموس (١٣١٧-١٣٢٤). التيبكون السابي الجديد انتقل الى الجبل المقدس وأصبح معمولاً به في الاديرة هناك، ثم وبسبب تأثير علم اللاهوت الأليسيخازموس ( كلمة ايسخوس باليونانية يعني الهادئ، وهذا كان نوعاً من الحياة الرهبانية وأسلوب الصلاة) انتشر التيبكون الى باقي منطقة البلقان لبلغاريا وروسيا.

من القرن السادس عشر أصبح تيبكون دير القديس سابا التيبكون السائد للطقوس الليتورجية في الكنيسة الأورثوذكسية.

### المرحلة الثالثة: من الحكم التركي حتى اليوم (١٥١٧ - )

تعرض رهبان دير القديس سابا زمن السلطان التركي سليم للاضطهاد والقتل، وهذا كان له تأثيراً كبيراً على الحياة الرهبانية في الافرا. وبالرغم من الفرمانات العديدة التي صدرت ( بين سنة ١٥٣٣-١٧٥٣م) والتي تنص على إصلاح الافرا، ألعفاء الضريبي وحماية

حقوق رهبان الدير إلا أن الرهبان تعرضوا لأشد أنواع المعاناة.

وجود الرهبان الصرب في اللافرا كان له فائدة، لأنه في تلك الفترة تقلص عدد الرهبان اليونانيين في القرن السادس عشر، ولكن عندما عجز الرهبان الصرب على تسديد ديون الدير من جراء عمليات البناء التي أجروها، تدخل البطريرك ثيوفانس الثالث ( ١٦٠٨-١٦٤٤ ) وسدد ديون الدير وأنقذه من يد المقرضين ومن يد الأارمن واللاتين الذين كانوا في تلك الفترة يحاولون الاستيلاء على الدير. من بين المساعدين والمساهمين للدير يُذكر البطريرك نيكتاريوس (١٦٦٠-١٦٦٩) والبطريرك دوسيدوريوس الثاني (١٦٦٩-١٧٠٧)، وأخيراً قام بعمليات الترميم والتوسيع في كنائس الدير، الغرف والأسوار ( بين سنة ١٦٦٧-١٦٨٦ ).

البناء الحالي للدير بني بعد زلزال ١٣ ايار سنة ١٨٣٤ تحت إشراف وإدارة الرئيس الروحي للدير آنذاك يواساف (١٨٤٥-١٨٧٤) الذي كان يدعى "المساهم الأكبر" وهو أحد شخصيات الرهبنة البارزة في فلسطين. شخصية الصدّيق يواساف كانت تتصف بالروحانية والتواضع، وفي عهده ولأول مرة زاد عدد رهبان دير مار سابا حتى وصل عددهم إلى ثمانين راهباً.

بالرغم من كل التقلبات السياسية التي واكبت القرن العشرين لم يواجه الدير الكثير من المشاكل بنعمة الرب وشفاعة الفاتحة قدسها والدة الاله وشفاعة القديس سابا بعكس باقي اديرة البطريركية، بل ان إعادة جسد القديس سابا الى ديره بعد فترة زمنية طويلة بعدما اخذه الصليبيون (ربما من القرن الثالث عشر) كانت بركة كبيرة لاخوية القبر المقدس ولرهبان الدير ولجميع المسيحيين الاورثوذكسيين في الأرض المقدسة واعطت رجاءً وأملاً للدير.

الحياة الروحية في الدير ساهمت في مواجهة مشاكل أخوية القبر المقدس والرعية الاورثوذكسية وحجاج المقدسات وما زالت هذه الروحانية مستمرة حتى اليوم وتؤكد أنه: "كما أن اورشليم هي ملكة كل المدن، فدير القديس سابا هو أمير الصحاري، وكما أن اورشليم هي نموذج لكل المدن فالقديس سابا هو مثال لكل الأديرة".